نَفائِسُ اقتِصاديَّةٌ حَضارِيَّةٌ
مِن مَنهَجِ الأديبِ العالِمِ المُؤَرِّخِ
أحمد إبراهيم الصابونيّ (رَحِمهُ اللّهُ تعالى)

الحمَويّ المولِد والوفاة (١٢٩١هـ – ١٨٧٥ م) – (١٣٣٤هـ ١٩١٦م)

محمد ياسر الدباغ

مدقق لغوي

الحلقة (٢)

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، والحَمدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تتمُّ الصَّالِحاتُ، وبِتطْبيقِ شَرْعِهِ الخالدِ تَسْعَدُ المخلُوقاتُ، وصلَّى اللّهُ وسلَّمَ على سَيِّدِنا وقائِدِنا مُحمَّدٍ الذي أكْرَمَ اللّهُ به العِبادَ، وأصلَحَ بِهَديِه البلادِ، وعلى آلِه السَّادةِ الهُداةِ وصَحْبِه الحُداةِ الأُباةِ، وعلى مَن سارَ على دَربِهم ونَهَجَ سَبيلَ الاعتِقادِ الصَّحيحِ الرَّشيدِ، واتَّبَعَ طُرُقَ الاقتِصادِ السَّديدِ، وعلَينا مَعَهُمْ بِرَحمَتِكَ يا أرحَمَ الرَّاحِمينَ؛ وبَعدُ :

فلا بُدَّ من إخْلاصِ السِّرِّ مع اللهِ تباركَ وتعالى؛ لُمتابَعةِ السَّيرِ ومُواصَلَةِ المسيرِ، وتحقيقِ معنى العِبادَةِ المتكامِلَةِ، ونَيلِ السَّعادةِ الحقَّةِ، ورَبْطِ اللاحِقِ معَ السَّابقِ؛ لِتَنْتَظِمَ مع بَعضِها البَعضِ فَتُشَكِّلَ عِقْداً فَريداً من أُستاذٍ فَقيهٍ أصيلٍ؛ ألاَ وهُو العالِمُ الأديبُ المؤرِّخُ أحمدُ إبراهيم الصابونيُّ – رَحِمَهُ اللّهُ تعالى– الذي نَظَرَ للحَياةِ نَظْرَةَ الناقدِ البَصيرِ، وتَدبَّرَ أُمورَ المعيشَةِ تَدبُّرَ العاقِلِ الحصيفِ؛ فَرَبَطَ العِلْمَ بالعَمَلِ، وجَعلَهُ هاديه ورائِدَه وحاديه وقائِدَه في مَنهجِ الحياةِ الدُّنيا وُصولاً لنَيلِ رِضا اللهِ تعالى (دُنيا وبَرْزَخاً وأُخْرى)؛ فَلَمْ يَعتَمِدْ على الأملِ الموهُومِ الزائِفِ بلا علْمٍ وعَمَلٍ؛ بلْ توكَّلَ على اللهِ تعالى حَقَّ التوكُّلِ؛ فتعلَّمَ العِلْمَ (اعتقاداً وسُلُوكاً، اجتهاداً واقتصاداً)، ومارسَ العَملَ جِدّاً ومُجاهَدةً؛ فـ(طَلَبَ الحلالَ جِهادٍ)، وجَعلَ مُعادلةَ الحَياةِ السَّعيدةِ (علْماً وعَملاً وعِبادةً) .

* ماذا تُؤَمِّلُ؟

قالَ اللّهُ تعالى : (ولا تَكُونُوا كالتي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أنكاثاً)، (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي اسْتَوقَدَ ناراً؛ فَلمّا أضاءتْ ما حَولَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ في طُغيانِهِم يَعْمَهُونَ)

قال رسولُ اللهِ صلَّى اللّهُ عليه وسلَّمَ: (سَلمانُ مِنّا آلَ البَيتِ)، (آلُ مُحمَّدٍ كُلُّ تقيٍّ)، (إنَّ المُنبَّتَ لا أرْضاً قَطَعَ ولا ظَهْراً أبْقَى) .

قال الله تعالى: (أتستَبْدِلُونَ الَّذي هُو أدنَى بِالّذي هُوَ خَيرٌ)،

قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: (إنّا لا نُعطِي مَن سألَ الإمارةَ)،

قال الله تعالى: (وأمّا الَّذينَ في قُلُوبِهِم زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ منْهُ).

ماذا تُؤمِّلُ مِنْ قَومٍ قَـدْ افْتَرَقُـــوا ... لا الدِّينُ يَجْمَعُهُمْ كَلًّا ولا النَّسَبُ

هُمْ أَدْلَجُوا وبَيـــاضُ الصُّبْحِ مُنْبَثِقٌ ... فاسْتَوقَدُوا النَّارَ إذْ عَنْ نُورِهِ حُجِبُوا

رامُوا الوُصُولَ لِمَرْقـاةِ النَّجاحِ وَقَـدْ ... جَدُّوا فأدْرَكَهُمْ مِنْ قَبْـلِها التَّعَـبُ

فاسْتَبْدَلُوا السَّيْرَ باللَّذاتِ واسْتَبَقُوا ... لَها فَمَقْصُـودُ كُـلٍّ مِنْهُمُ الرُّتَـبُ

والغِشُّ يَلْبَسُ ثَوبَ الحَقِّ يُشْـبِهُهُ ... يُطلَى النُّحاسَ فَيَغْدُو لَونُهُ الذَّهَبُ

* قلبي يذوبُ:

قالَ اللهُ تعالى: (ولَتَجِدَنَّهُمْ أحْرَصَ النَّاسِ على حَياةٍ ومِن الَّذينَ أشْرَكُوا)،

قال رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "أنا النَّذيرُ العُريانُ"،

قال اللهُ تعالى: (ولَولا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وبِيَعٌ وصَلَواتٌ ومَساجِدُ يُذْكَرُ فيها اسْمُ اللهِ كثيراً)،

قال اللهُ تعالى: (ولْيَخْشَ الَّذينَ لو تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قولاً سَديداً)،

وقال اللهُ: (إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ)،

قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: (النَّاسُ أعداءُ ما جَهِلُوا)، (الخَمْرُ أُمُّ الخَبائثِ)، (النَّاسُ نِيامٌ فإذا ماتُوا انْتَبَهُوا)،

قال الله تعالى: (ربِّ إنِّي مَغلُوبٌ فانْتَصِر) ، (وإذا قُلْتُمْ فاعْدِلُوا ولَو كانَ ذا قُرْبَى)،

قال اللهُ تعالى: (فهَلْ عَسَيْتُمْ إنْ تَوَلَّيتُمْ أنْ تُفْسِدُوا في الأرْضِ وتُقَطِّعُوا أرْحامَكُمْ؟)

إنْ شِئْتَ أنْ تَقْضِي الحياةَ بِذِلَّةٍ ... فَلْتَسْكُنَنْ في ظِلِّ مَن لا يُنْصِفُ

أَبَتِ الحَقيقَةُ أنْ تُسَتِّرَ نَفْسَـــها ... لَكِـنْ إذا حَرَّفْتَهـــــا تَتَحَرَّفُ

ويُسامُ بالخَسْفِ الرِّجالُ تَحَكُّما ... فإذا هُمُ لَمْ يَدْفَعُـــوهُ اسْتُضْعِفُوا

قُلْ لِلّذينَ تَرَحَّلُـــوا: خَلَّفْتُـمُ ... كُلَّ القُلُوبِ مِن الحَوادِثِ تَرْجُفُ

والبَعْضُ يَلْحُو الآخَـــرِينَ لأنَّهُ ... مِنْ جَهْلِهِ بِمُصـابِهِمْ لا يَعْـرِفُ

هُمْ يَشْرَبُونَ دُمُوعَهُمْ مِنْ خِيْفَةٍ ... وشَرابُ مَن لا يَسْـأَلُونَ القُرْقُفُ

وَقَفُـوا لِداهِيَـةِ المصائِبِ وِقْفَةً ... غابَ الصَّدِيقُ بِهـا وقَـلَّ المُنْصِفُ

وأمضُّ جُرْحٍ لِلقُلُوبِ ظَلامَـــةً بِالرغْمِ تُدْعَى رَحْمَةً إذْ تُوصَفُ

(القُرْقُفُ : الخَمْرُ)

* ذُلٌّ ورِياءٌ :

قال اللهُ تعالى : (رَضُوا بأنْ يَكُونُوا مَع الخَوالِفِ وَطَبَعَ اللهُ على قُلُوبِهِم)، (ولَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدمَ)،
(ومَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ)، (لَيْسُوا سَواءً مِنْ أهْلِ الكِتابِ أُمَّةٌ قائِمةٌ يَتْلُونَ آياتِ الكِتابِ آناءَ الليلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ)، (ومِنَ النّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ . .)،(. . ولَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ . .)،
(. . إنما تُسْمِعُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ والموتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ . .)، (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا . .) .
وَرَدَ في الحديثِ القُدسيِّ : (أنا أغنَى الشّركاءِ عن الشِّرْكِ)، (مَنْ عمِلَ عَملاً يبتغي به غَيري؛ فَلْيَتَّخِذْ إلهاً غَيري)
قالتِ السَّيِّدةُ عائشَةُ أمُّ المؤمنينَ رضيَ اللهُ عَنها لِرَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : "أنَهْلِكُ وَفِينا الصَّالِحُونَ" ؟ قال : "نَعمْ إذا كَثُرَ الخَبَثُ .

إنَّ الَّذي ألِفَ المذَلَّةَ مَسْـــــلَكاً صَعْبٌ عَلَيهِ بأنْ يَعيشَ مُعظَّما
لَمْ يَدْرِ قِيمَةَ نَفْسِـــــهِ فأهانَها والنَّفْسُ إنْ هانَتْ فَلَنْ تَتَكَرَّمـــا
ليسَ الَّذي اتَّخَذَ الشَّهامةَ شِيمَةً مِثْلَ الَّذي اتَّخَذَ السَّفاهَةَ مَغْنَما
وإذا فَشـــــــا داءُ الرِّياءِ بِبَلْدَةٍ فَمِنَ الـمحالِ لـها بأنْ تَتَقَدَّما
ما لِلقُلُوبِ قَسَتْ فَلَو حَلَّ الرَّدَى بِبَقِيَّةِ الأعْضـــــاءِ لَنْ تَتألَّمـا

* أبْكِي عَلَيهِ وَمِنْهُ :

قال اللهُ تعالى : (ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ولا تَمْشِ في الأرْضِ مَرَحاً)،
قالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَليهِ وسلَّمَ : "بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أخاهُ المؤمِنَ" ،
قال اللهُ تعالى : (فأمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً)،
قال رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَليهِ وسلَّمَ : "المرءُ على دِينِ خَليلِه؛ فَلْيَنْظُرْ أحَدُكُمْ مَنْ يُخالِلُ" .
قال اللهُ تعالى : (وَدُّوا لو تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)، (إنَّ فِرعَونَ عَلا في الأرْضِ وَجَعَلَ أهلَها شِيعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفةً مِنهُمْ . .) .

أبْكِي عَلَيـــــهِ إذا دَهَتْهُ مُصيبَةٌ وكَذاكَ أبْكِي مِنْهُ لما يَظْلِمُ
ومِن الخَسارَةِ أنْ تُعاشِرَ أحْمَقـــاً مُتَكَبِّـــــراً ومُحَقِّراً يَتعظَّمُ
ومِنَ السَّفاهَةِ أنْ تُناغِي مَنْ يَرَى أنَّ السَّفِيهَ هُوَ العَزِيزُ الأكْرَمُ

تَتَقَلَّبُ الأيَّـــامُ في أحْـــوالِها ... بَيْتٌ يُشادُ بِمالِ بَيْتٍ يُهْدَمُ
ومِنَ الرِّجالِ على الرِّجالِ مُسَيْطِرٌ ... يَهْوَى الخَرابَ وَظالِمٌ يَتَظَلَّمُ

*** حِجابُ المرأة:**

لقَدْ جَعلَ اللهُ الأنْثَى لُؤلؤةً وَدُرَّةً مَصُونَةً، وجَوهَرةً كريمةً مُكَرَّمةً، وأسْبَغَ علَيها (لِباسَ الحِشْمَةِ، وجِلْبابَ الوَقارِ، وحِجابَ العِفَّةِ، وزِيَّ الحَرائِرِ، وزِيْنَةَ الحياة)؛ لِتَبْقَى لَها أُنُوثَتُها وحَياؤُها، وتَسْلَمَ لها طَهارَتُها ووَفاؤُها لإنْسانِيَّتِها وفِطْرَتِها؛ فلا تَسْتَرْجِلَ ولا تَتَخَنَّثَ؛ ولِمَ لا وقَدْ خَلَقَها خَالِقُها وفَطَرَها على العِفَّةِ والحَياءِ.

وقَد قالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "الحَياءُ لا يأتي إلاّ بِخَيرٍ" مُتَّفَقٌ عليه.

"الحَياءُ شُعْبَةٌ من الإيمانِ" مُتَّفَقٌ عليه، "الحَياءُ خَيْرٌ كُلُّهُ" رواهُ الإمامُ مُسلِمٌ.

قال اللهُ تعالى: (ولْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ ولا يُبْدِينَ زِينتَهُنّ إلاّ..)،

(ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهليَّةِ الأُولَى وأقِمْنَ الصَّلاةَ وآتِينَ الزَّكاةَ وأطِعْنَ اللهَ ورَسُولَهُ..)

قال اللهُ تعالى:(والعَصْرِ * إنَّ الإنْسانَ لَفِي خُسْرٍ * إلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وتَواصَوا بِالحَقِّ وتَواصَوا بالصَّبْرِ).

قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "صَنعةٌ في اليَدِ أمانٌ من الفَقْرِ"، "رِفْقاً بالقَوارِيرِ".

"أوَّلُ مَنْ خَطَّ، وخَاطَ، ولَبِسَ المِخيطَ، ودَرَسَ عُلُومَ الحِسابِ والنُّجُومِ سيِّدُنا إدريس عليه السلامُ" (مختصر تفسير القرطبي)

إنْ لَمْ يَكُـنْ طَبْـعُ الرِّجـالِ مُهَذَّبـاً ... فأجَـلُّ عِلْـمٍ لِلفَتـــاةِ المِغْزَلُ
فَدَعِ الحِجابَ على النِّســـاءِ صِيانَةً ... إنَّ الحِـجَابَ مِنَ التَّبَرُّجِ أجْمَلُ
شَرَفُ الفَتَى مِثْلُ الزُّجاجَةِ إنْ تُصَبْ ... بِالصَّدْعِ يُدْرِكُها الفَناءُ فَتُهْمَلُ
إنَّ الحِـيـــاةَ ثَمِـيـنَـةٌ فَـمَبِـيـعُـهـا ... بِالبَخْسِ مِنْ أخلاقِ مَن لا يَعْقِلُ

قال اللهُ تعالى: (فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أنْزَلَ اللهُ)، (فإنْ حَكَمْتَ فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالقِسْطِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ)، وقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: (وأمّا القاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً).

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "ما مِنْ أحَدٍ أقْرَبُ مَجْلِساً من اللهِ يومَ القِيامَةِ بَعْدَ مَلَكٍ مُصْطَفَى أوْ نبيٍّ مُرْسَلٍ من إمامٍ عَدْلٍ".

وقالَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "لأَنْ أقْضِيَ يَوماً بِالحَقِّ أحَبُّ إليَّ مِنْ عِبادَةِ سَبْعِينَ عاماً"،

عن مَعقِلِ بنِ يَسارٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: "ما مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَومَ يَمُوتُ وهُوَ غاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إلاّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الجَنَّةَ".

وفي روايةٍ لمسْلِمٍ: "ما مِنْ أميرٍ يَلي أُمورَ المُسْلِمينَ ثُمَّ لا يَجْهَدُ لَهُمْ ويَنْصَحُ لَهُمْ إلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الجَنَّةَ" .

بالذُّلِّ لا يَرْضَى العَزيزُ وَحَبَّذا رَجُلٌ عَنِ الأرْضِ الذَّلِيْلَةِ يَرْحَلُ

وإذا صَفا أمْرُ الحُكُومَةِ تَزْدَهي أرْجـاؤُهـا بالصَّفْـوِ لَمَّـا تَعْـدِلُ

فطُوبى لِمَنْ فَقِهَ الحَياةِ مَنْهَجاً وسُلوكاً، وسارَ بِشَرْعِ اللهِ تبارك وتَعالى مُسْتَنيراً ؛ فصارَ بهَدي النَّبيِّ المصطفَى مُنوَّراً؛ فكانَ مِمَّنْ أكْرَمَهُ اللهُ تعالى في دارِ السَّعادة والسُّرورِ سَعيداً مَسْرُوراً.

اللهُمَّ اجْعَلْنا مِنْهُمْ بِرَحْمَتِكَ يا أرْحَمَ الرَّاحِمينَ، اللهُمَّ آمينَ.